



طاقات اللغة العربية

دكتور محمد عامر حمزة
عضو المجلس الاعلى للآداب
(دمشق)

المصور ، وكونت دنيوات من الاحاسيس ، ما كانت تحملها اللفظة العربية من قبل .

وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على مرونة اللغة العربية ، واستجابتها لمتطلبات الحياة ، ومقتضيات الحضارة . وانها كائن حي ، خاضع لنواميس التطور ، وتوانين الارتقاء .

ويتحلى الذهن العربي بالنعاء والصفاء ، والتفتح والانطلاق ، والتمرد والانعتاق من الحدود الضيقة ، وكل ذلك من معطيات الطبيعة الصحراوية ، المتفتحة الآفاق ، الملونة الجواء ، المترامية السعة والابعاد ، وانعكس كل ذلك على اللغة العربية ، وظهر في مفرداتها وتعابيرها ، وصورها واغراضها .

واجتمع من كل ذلك للعربي جمال التعبير ، الى سعة الخيال ، وخصبه ، وحرارة العاطفة وتوقدها ، وامداء التطلع والتشوف ، وبلغ القول عنده غايته الجمالية ، فكانت البلاغة ، وكان الاتناع ، والبلاغة والاتناع هما كل ما ترمي اليهما اغراض التعبير في كل اللغات .

وانك لتجد فيها تركه العرب من اشعارهم ، واثمهم اللفظة المأنوسة المعبرة ، المسؤولة عن رسالتها في الجملة ، والجملة الصحيحة المسؤولة عن دورها في تادية الفكرة ، واغناء الصورة . تتساقق

جمعت لغة العرب من الخصائص ، وتوفر لها من المميزات ، ما لم يجتمع ويتوفر في غيرها من اخواتها الساميات .

فقد اخذت خير ما فيهن من الالفاظ والتعابير والمصطلحات ، لانها احدثهن انفصالا عن اللغة الام : فهي اوسعهن مفردات ، واكثرهن مترادفات ، والينهن حروفا ، واسهلن مخرجا ، واعذبهن نطقا ، واصفاهن نفعا وجرسا .

واللفظة العربية تمتاز عن غيرها من الفاظ اللغات الاخرى بانها تستدعي اختها استدعاء لحيفا ، لتقف الى جانبها بواسطة « المتعلق » وروابط الكلمات ، والجميل ، وادوات الفصل والوصل .

وهي الى جانب كل هذا تحتل المعنيين :

1 — المعنى المباشر : وهو المعنى الذي وضع لمفهوم اللفظة منذ نشوئها .

2 — المعنى المجازي : وهو كما يدل عليه اسمه ، اي ما تجاوز الحقيقة الى ما يقابلها لرابط بين المعنى الحقيقي ، وبين هذا المقابل .

ولقد اندخلت العصور الحديثة والتطور الحضاري على اللفظة العربية ، ظاهرة « التجسيد » ، ووسعت عالم طاقاتها ، وفجرت هذه الطاقة ، فخلقت عوالم من

2 — الجمالية في اللفظة مفردة ومركبة :

اللفظة المفردة تقوم بدور هام في اعداد النفس ، واحداث الاضطراب فيها ، ولكن دورها مركبة يكون اكثر عمقا في الوجدان ، واقتوى لمسا للاحساس ، واقدر على تحريك سواكن النفس ، واستثارة كوامنها ، وادعى لبعث انفعالها وهيجانها .

والفظة المفردة مهما اوتيت من تساوق الحروف ، وتزواج المخارج وتناغم اللفظ ، ومهما حملت من سعة المعنى ، وشموله ، وجلاله ، فانها لا تستطيع ان تؤدي الرسالة التي تؤديها وهي مركبة ، وانها لاشبه بالذرة الفريدة يزيدا انتظامها في العقد بهاء ورونقا وولادة .

فالتركيب في اللغة العربية اذا تعمدته يد صناع ، وتكفله ذوق سليم ، ونظمه عقل عليم بأسرار الجمال البياني اذا تم له كل ذلك تفجرت طاقات الالفاظ **وانداح عبيرها الأسسر** ، وملاّت جواء النفس ارتعاشا محببا ونشرت في جوانبها وأعماقها ارتياحا عميقا .

لا يمكن لحجارة البناء مهما كان حظها من جودة الصقل ، ونساعة اللون ، وكرم المعدن ، واستقامة الزوايا ، ان تستأثر باعجابنا ، وتستحوذ على تقديرنا ، وهي مفردة ، متفرقة ، كما لو ضمت الى نظيراتها في بناء القصر المنسق الجميل ، الذي صممه يد مهندس خبير بأسرار البناء .

ولناخذ على سبيل المثال : لفظتي : ارتد النفس — بفتح الفاء — فماذا تعطينا؟؟ انها تعطينا المعنى المباشر الموضوع لهاتين اللفظتين في طفولتهما وهو معنى لا يثير فينا هزة ، ولا يحدث في اعصابنا زلزلة ، حتى ولا اختلاجة ، وما ذلك الا لانه اخذ بمعناه العادي البسيط على طريقة الاخبار او الانشاء .. ولكن لناخذه بمعناه المجازي ، ونضعه مع مقابل له يزيد وضوحا ، ويكسبه بالمقارنة روعة وجمالا .

قال بشار بن برد — مخضرم الدولتين الاموية والعباسية — يصف حركات حبيبته :

صدت بخد وجلت عن خد

ثم اثنت كالنفس المرتد
لقد احسن الشاعر توظيف هاتين الكلمتين ، وتمكن ببراعته وخبرته بصناعة البيان العربي ان يحلها مسؤولية فنية ، وهذه المسؤولية هسني : تشبيهه سرعة حركات حبيبته بسرعة تكسبها خفة ورشاقة وجمالا .

كلماتها وتتناغم حروفها ، ويضاف الى هذا تزواج في الجمل المترادفة على المعنى الواحد لزيادة ايضاحه ، وتركيزه في الذهن ، وتلويحه ، وعرضه بصور متعددة . كما تجد التوازن والتوافق بين هذه الجمل ، والتجاوب الموسيقي ، وكل ذلك يشترك اشتراكا مباشرا ، ويتوزع توزيعا طبيعيا محكما ، ليعطينا المعنى المراد .

1 — الجمالية في المقطع الصوتي :

لعل في بيت البحرني الذي يصفه تـمـوج الشمس على زجاج حيطان القصر الكامل — أحد قصور الخلافة في بغداد — وتشبيهه بأمواج البحر خير مثال للتجسيم الصوتي في الكلمة .

وكان حيطان الزجاج بجـوه
لجج يـجـن على جنوب سواحل
فهذا الاجيج الذي يحدثه حرف الجيم في البيت يجسم لك صوت الامواج في ساحل البحر .

وقال :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه
من منظر خطر المذلة هائل

فالحروف والمقاطع التي تتألف منها لفظة « ترنم » الواردة في البيت تعطينا صورة صادقة لصوت الحمام المترنم على شرفات القصر .

قال شاعر يصف كوخه :

غنة الاغن فيه ، وبه بحة الناي ، وبوح المزهـر
فالتوننات المشددة ، وحرفا الغين الواردة في صدر البيت تعطي صوت الاغن وغنته ، وصحل حرف الحاء في عجز البيت يصور — صوتيا — بصيح الناي ، وبوح المزهـر .

وكل الافعال الرباعية المضاعفة في لغة العرب مثل زعزع ، ولعلع ، وزلزل ، ودمدم ، وجلجل ، هي اصوات تجسمت مقاطع وكلمات ، وتضعيفها يعني تواتر الصوت ، وتكراره .

ويمكننا ان نطلق على هذه الزمرة الاخيرة من الاصوات اسم « حكاية الاصوات » لانها تحكي الصوت ذاته ، في حين يمكننا — ومن باب الدقة — ان نطلق على الزمرة الاولى اسم « اصوات الحكاية » لانها تحكي الظاهرة النفسية ، وتصعد مخزون النفس من اللذة والامل عن طريق المقاطع الصوتية المختلفة .

ونجد وراء هذه الصورة التي تتبادر أولا الى اذهاننا معنى ادق وابعد وغرضا اسمى واعمق وهو ان صاحبه رشيقة القوام ، وكثيرة الميسان ، وهي صفة محبوبة في نساء ذلك العصر ، كما يوحي هذا التعبير لنا انها حبيبة خفرة ، تنفتل بخفة ورشاقة لتنتقي الناظرين ، والخفر والحياء صفتان مرغوب فيهما في المرأة العفيفة .

والآن لناخذ لفظة « الشهوة » او جمعها « الشهوات » فعلى ما في هذه اللفظة من مقاطع صوتية مثيرة ، كالشين المشددة المفخمة ، والهاء الحلقية ، والجهد الذي تبذله الشفتان في التلفظ بمقطع الواو ، فان كل ذلك يظل مقصورا على حركات ، وانقباضات ، وانبساطات ، يقوم بها جهاز النطق ، لتهيئة النفس لقبول الاثر الخارجي ، ولكن اذا اخذنا هذه اللفظة مركبة مع غيرها كما اوردها العباس بن الاحنف ، فانها تخلق جوا اوسع ، واصدى ، وانعم :

اتأذنون لصب في زيارتكم

فعندكم شهوات السمع والبصر

فتوالي حركات هذه اللفظة وامتداد الصوت عند نطقها ، واختلاف هذا الامتداد بين الثنايا ، والصدر ، والشفتين ، وازافتها الى لفظتي السمع والبصر يخرجها من طفولة المعنى وبساطته الى عنفوانه وسموه وروعته .

وهل فئاتك ان العباس بن الاحنف هو من شعراء العفة المعذرين القانعين بشهوات السمع والبصر ، عن شهوات اللبس والذوق الحسينين ، وانه استطاع بهذا البيت ان يترفع بالحب عن الدنيا ، مع انه استعمل لفظة كان مدلولها - في الاصل - للذوق واللمس الهاديين .

ولفظة « تحير » تفيد التوقف ، وعدم الاهتداء ، ولما استعملها ابن ابي ربيعة في محلها ، ونفت بها من مجاز المعنى ، اعطت جمالا اغنى ، وافقا ارحب ، وربما اخصب .

وهي مكنونة « تحير » منها

في اديم الخدين ماء الشباب

فما الشباب على ترقرقه وصفائه في الخدين ، وتوجهه بنار الشباب ، لم تكتمل ملاحظته ، ولم تستفض روعته ، الا بهذا « التحير » .

هذا مع الاشارة الى اني ارجب في التجاوز عن لفظة « اديم » الواردة في بيت ابن ابي ربيعة ، واعتبرها ،

مقلقة ، غريبة ، نالت من جمال البيت ، وترف لفظه ، ولم يشر النقاد - تديبا او حديثا - الى ذلك مع انهم اشبعوا هذا البيت نقدا ودرسا واكثروا منه تمثيلا واستشهادا .

وعند كثير عزة نجد امثال هذه الاوابد الشوارد التي يمتاز بها شعر العرب ، قال :

لو ان عزة خاصمت شمس الضحى

في الحسن - عند موفق - لقضى لها

فهل بادهتك الروعة وبهرك الجمال في شبيهه
الجملة المعترضة - عند موفق - ؟ ؟

واي معنى تحصل عليه اذا جردت البيت من هاتين اللفظتين المعترضتين ؟ ؟

من المتخاصمان !! عزة ، والشمس .

الشمس في راد الضحى ، لا في مستهل الصباح
ولا في اصفرار الاصيل !!

ما هو الحكم المشروط ؟

هو ان يحكم لعزة على خصيمتها ليكون موفقا .

وهذه لفظة « تنقري » وهي على شيء من الغرابة وخشونة اللفظ ، اخذها البحري واستعملها في ازالة شكه وارتيابه ، المفتلى ، عندما وقف يتأمل بدهشة وذبول صور الفرس والروم ، واعلامهم وسيوفهم ورماحهم المشرعة في معركة انطاكية المرسومة على جدران ايوان كسرى ، حتى خيل اليه انهم احياء - جد احياء - .

ولا يفوتك التعبير - جد احياء - لما فيه من التاكيد والالاحاح على السامع ليقتنعه بانه يرى اناسا احياء ، لا صورا مرسومة على الجدران .

هذه اللفظة كما ذكرنا استخدمها هذا الشاعر للتأكد من الحقيقة عن طريق لمس اليد - لا بل اليدين متناوبتين في اللمس ، او متعاونتين - فجاءت كما ارادها طبعه السليم .

تحسب العين انهم جد احياء

لهم بينهم اشارة خرس

يفتلي فيهم ارتيابي حتى

تتقراهم يداي بلمس

ومن التعابير الفنية الغنية التي تزخر بها لغة العرب قول الشريف الرضي :

3 — البناء المنطقي أو عمل العقل المنظم من حسن عرض واغناء صور وتلوين آفاق .

على ضوء هذه الاسس والمقاييس سنتلخص الجمالية في هذين البيتين ومدى الشحنة العاطفية والوجدانية التي يحملانها ، والاثر الذي يتركاه في النفس . ونرى هل توفرت هذه العناصر وما هي النسبة لكل منها .

ولما نزلنا واديا طله الندى
حييا ، وبستانا من النور حاليا
اجد لنا طيب المكان وحسنه
منى ، فتمنينا ، فكنت الامانيا

1 — اننا نجد التشديد المتعطرش ، الذي يعنى التوقف لخلق شحنة من الاستثارة وتعميقها في سبعة مواضع من البيتين ، وفي الالفاظ التالية : ولما — طله — الندى — حييا النور — اجد — تمنينا .

2 — نجد الاطلاق الصوتي في الالف الساكنة المفتوح ما قبلها في خمسة عشر موضعا — ولما — نزلنا — واديا — الندى — حييا — وبستانا — حاليا — لنا — المكان — منى — فتمنينا — الامانيا .

وهذا الانسياب الصوتي مع الالف الساكنة يعني راحة النفس يقذف ما تخزنه من الطاقة العاطفية .

3 — نجد بوحا هامسا في لين الواو والياء الساكنتين في لفظتي — النور — وطيب ، وفي ضمة الهاء المشبعة من لفظة « حسنه » .

وهذا كله يشكل خطا بيانيا متعرجا للتوتر النفسي الداخلي ، والفترات الزمنية التي تستغرقها الذبذبات والاصوات في اغوار النفس ، صاعدا مع الضمة واشباعها ، متناسبا ممتدا مع الفتحة ، مستقيما صلبا مع التشديد ، هامسا منغوما مع اللين والسكون ، هابطا رقيقا مع الكسرة .

ولعلك لم تفتك هذه الانات التي تبعثها فيك هذه النونات المتعاقبة في شطر البيت الثاني منى — فتمنينا — فكنت الامانيا . فهذه « الغنة » التي يحدثها هذا الحرف النغم تعطينا صورة صوتية مبهوسة ناعمة لها يعتمل في اعماق النفس من انفعالات .

اما البناء المنطقي وتسلسل صورهِ فيتجلى في ان الوادي المطلول يكون « حييا متحليا بالنور والاريج ، ويصبح النزول به — وهو على هذه الشاكلة — حاجة طبيعية ملحة .

ولقد مررت على ديارهم
وظلولها بيد البلسى نهيب

وتلفتت عيني ، ومد خبيبت
عني الطلول ، تلفت القلب اا

فالتفاتة العين شيء طبيعي لا يستثيرنا ، ولا يحدث فينا هزة ولا ارتعاشة ، اما تلفت القلب فهو الشيء الذي ينتزع اعجابنا ويحركنا لما فيه من (تجسيد) اللفظة . والذي زاده امعانا في الحسن ، وايضالا في الجمال هذه المقارنة بين تلفت العين وتلفت القلب .

بين هذه الالتفاتة الطبيعية وهذا الالتفات المجازي، ومن التداعي للمشابهة ، والمناسبة ، ان نورد في هذا المقام قول البحترى ايضا :

عذيري فيك من لاح اذا ما
اطلت العتب « حرقني » ملاما

فتعبير « حرقني » بلغ غاية الاجادة لما اجتمع للفظة « حرقني » من مقاطع صوتية هازة ولها في وزن « فعل » من تعطيش عين الفعل وقوتها ، ولها في اسناد « التحرق » للامام ونقله من معناه الذي هو للنار الى المعنى المجازي ولما بين حرارة النار وحرارة الملام من مشابهة في الایلام .

وبجدربنا ان نشير هنا الى « الجمالية » في المقاطع الصوتية الواردة في صدر هذا البيست ، فامتداد الصوت في الياء الساكنة المكسور ما قبلها في لفظتي ، عذيري ، وفيك ، والالف الساكنة المفتوح ما قبلها في الفاظ « لاح » « اذا ما » يحمل شحنة عاطفية ترتاح اليها النفس في هذا الانسياب الناعم .

* * *

والآن وبعد ما تقدم علينا ان نحاول ايجاد نوع جديد من الدراسة الفنية ، نطبق فيه — بقدر الامكان — المعايير والمقاييس الحديثة التي اشرنا اليها في هذه الدراسة لتكون منهاجا جديدا يخرجنا من نطاق الدراسات الكلاسيكية المعروفة .

نعتمد في هذا المنهاج على ثلاثة عناصر :

1 — البناء النغمي او الموسيقي او ما سميناه بجمالية المقاطع الصوتية ومدى تناسقه مع التوتر النفسي ، وقوة حركته وموجانه .

2 — البناء التناسقي وتداعي الكلمات وتأخيها وتناسكها وحيويتها .

تم جاءت لفظة لما الحينية لتضع الزمان بجانب المكان ، ليكون للقول مرتسم في الذهن وتصور في الخيال ، لان الذهن والعقل يتطلبان الحدود الزمانية والمكانية ، ومتى حصل الزمان والمكان اطمان العقل وهذا الذهن ودخلت الحادثة في حيز الحصر والامكان والتصوير .

وهنا ندرك أن قيام الزمان والمكان في تصورنا والنزول في الوادي الطليل بالانداء توفرت الاسباب الخارجية المثيرة للحواس ، فتم التداعي واستحضار الصور فتذكر الشاعر حبيبته .

وانظر كيف « نكر » الشاعر لفظة « منى » لتكون شائعة في جنس الامنيات العديدة وكيف عرف لفظة (الاماني) في قوله « فكنت الامانيا » والمعرف يستغرق كل الجنس لا بعضه .

ولو اردنا استقصاء الجمال في هذين البيتين

لاعوزنا وقت اطول ولكن حسبنا اننا اشرنا بمعنى اشارة ودللنا بعض تدليل على الجمال المتدفق منها متطعما ولفظا مفردا ومركبا .

تلك المامة عجلى ، ولمحة خاطفة ، بل ذلك غييض من فيض ، مما تزخر به لغة العرب - وخاصة في الشعر - من جمال صوتي ، وتعبيري ومعنوي وهي خاصة تميزت بها لغتنا العربية عن الكثير من اللغات .

ولكن هذه الكنوز لا يمكن استخراجها ، والانتفاع بها فيها ، الا اذا توفرت في المنقب الدارس الملكة الفنية ، والحس الرهيف ، والذوق الرفيع ، والعلم الواسع ، والاطلاع الشامل على اسرار الكلم العربي ، وأوتي القدرة على استجلاء معانيه واكتناه جمالاته ، وتفجير طاقاته فعلى أدياء الامة العربية أن يكتشفوا هذه الجوانب الجمالية المتميزة في لغتهم ويكشفوها للعالم .

